تقييد المعنى في نهج البلاغة

المدرس المساعد
أميرة حسين محمد علي
جامعة الفرات الأوسط ـ الكلية التقنية الهندسية
ameera.alalawy@atu.edu.iq
المدرس المساعد
زهراء أكرم عبد الأمير
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية
zahraaa.alrikabi@uokufa.edu.iq

The Restriction of Meaning in Nahj al-Balagha

Assistant Lecturer
Amira Hussein Mohammed Ali
Al-Furat Al-Awsat University - College of Engineering Technology
Assistant Lecturer
Zahraa Akram Abdul-Amir
University of Kufa - College of Basic Education

الملخص:-

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن آليات تقييد المعنى في نهج البلاغة، الذي يضمّ مجموع رسائل الإمام علي عليه السلام وخطبه وحكمه، على نحو ما درج الشريف الرضي على جمعه وتصنيفه، باعتماد شرح ابن أبي الحديد المعتزلي.

وتُعد آلية "تقييد المعنى" من الملامح البلاغية المهمة التي تسهم في تحديد المعاني وإيضاحها، وإزالة اللبس أو الإشكال الذي يمكن أن يشكّل عائقاً لدى المتلقي يحول دون بلوغ المعنى المقصود.

وبناءً عليه جاء عنوان البحث: "تقييد المعنى في نهج البلاغة"، في سعي للكشف عن أبرز الجوانب الجمالية الداخلة في تشكيل الدلالة المقصودة، بناء على قواعد إجرائية ثلاث: المعنى المعجمي أو المباشر للفظة، والمعنى السياقي الإيحائي أو الدلالي، والبنية المحيطة أو مقام الحال، على نحو يتوزّع على مسارات دراسية ثلاثة تتوافر عليها الحكم والرسائل والخطب، هي: المستوى اللغوي والنحوي، والمستوى الديني، والمستوى البلاغي.

وقد أفادت هذه الدراسة من مناهج شتّى، كالمنهج التحليلي الوصفي الذي يرصد التقنيات الموظفة في استظهار آلية تقييد المعنى، والمنهج التاريخي الذي يراعي النظر إلى النصوص من حيث سياقها التاريخي، والمنهج النقدي الذي يراعي الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين نماذج النصوص المنتقاة في "نهج البلاغة" من جهة، وعلاقة هذه النصوص بمرجعياتها الثقافية عموماً من جهة ثانية.

الكلمات المفتاحية: تقييد المعنى، نهج البلاغة، الأسلوب البلاغي، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

Abstract:-

This paper aims to uncover the mechanisms of meaning restriction in Nahj al-Balagha, which includes the collection of letters, sermons, and sayings of Imam Ali (peace be upon him) as compiled and classified by Al-Sharif Al-Radi (may Allah have mercy on him), with reliance on the commentary of Ibn Abi al-Hadid al-Mu'tazili. The mechanism of "meaning restriction" is considered one of the significant rhetorical features that contribute to defining and clarifying meanings, and removing ambiguity or confusion that might hinder the recipient from reaching the intended meaning. Accordingly, the title of the paper is "Restricting Meaning in Nahj al-Balagha," in an effort to uncover the prominent aesthetic aspects involved in shaping the intended connotation, based on three procedural principles: the lexical or direct meaning of the word, the contextual or implied meaning, and the surrounding structure or the situational context. These principles are distributed across three study pathways found in the wisdoms, letters, and sermons, which are: the linguistic and grammatical level, the religious level, and the rhetorical level. This study has benefited from various methodologies, such as the descriptive analytical approach that monitors the techniques used to reveal the mechanism of meaning restriction, the historical approach that considers the texts within their historical context, and the critical approach that examines the similarities and differences between selected text samples in "Nahj al-Balagha" on one hand, and the relationship of these texts to their cultural references in general on the other.

Keywords: meaning restriction, Nahj al-Balagha, rhetorical style, Imam Ali ibn Abi Talib.

المقدمة:ـ

تعدّ البلاغة من أهم الفنون الأدبية التي ميزت اللغة العربية على مر العصور. ولعلّ مبعث العناية في البنية البلاغية للتعبير القولي لدى العرب يعود إلى عوامل شتّى، أبرزها العلاقة الواشجة التي جمعت بينهم وبين التعبير الشعري بوصف الشعر ديوان العرب والمعبّر عن تجاربهم الذاتية والجمعية وواقع حياتهم وهواجسهم وأفكارهم، فكان يجري فيهم مجرى السيل في الشِّعاب، ومن هذه العوامل الخطابة، فقد كان للخطابة دورها الفاعل في الحركة الأدبية في المجتمع العربي عموماً، بوصفها أداة تعبيرية قائمة على البرهان والمنطق والحجاج والإقناع، على اختلاف المرجعيات الثقافية التي تأثرت بها الخطابة العربية، ولعلّ ما يؤكد ذلك ما عُرِف لدى العرب بـ"سجع الكهّان" الذين كانت العامة تعتقد بأنهم يُوحى إليهم فينطقون بالغيب أو بما لا يدركه الآخرون. وثالث هذه العوامل - تبعاً للتطور التدرّجي للبلاغة العربية عبر العصور - القرآن الكريم الذي جمع في ثناياه أفانين القول الذي ندّ عن المشاكهة والمناظرة، فكان تحدّياً من الله تعالى أن يأتي القوم بسورة من مثله. فلا غرابة - والحال هذه - أن يتصدّى لفيف من الدارسين والمهتمين بفنون القول من العرب وغيرهم لموضوع "البلاغة العربية" درساً ونقداً يكشف عن الجوانب الجمالية لفنون التعبير لدى العرب، من جهة، ويسهم في تعزيز روافد البلاغة العربية بوصفها بنية مفتوحة قابلة للتأثر والتأثير والإناء والاستغناء، فهي بهذا علمٌ حيّ يشكّل حقلاً معرفياً قابلاً للزيادة والنماء، ولعلّ أدلّ دليل على هذه الوجهة كمّ الدراسات الحديثة التي تناولت ما يُعرف بـ"البلاغة الجديدة" وعلاقتها بالحقول المعرفية اللغوية الأخرى كالأسلوبية وعلم الجمال وسوى ذلك، اتكاءً على أرومة البلاغة العربية القديمة.

ومن النصوص التي احتلت مكانة عالية في الحقل البلاغي، "نهج البلاغة" الذي يجمع بين دفّتيه مجموع رسائل الإمام علي عليه السلام وخطبه وحكمه، وهو منجز موسوعي ضارب بسهم عظيم من مختلف فنون القول وشتّى الحقول المعرفية الإنسانية، الأمر الذي يجعله مادة خصبة للدرس البلاغي. ولا ريب في أنّ دراسة واحدة مقتضبة لن يتسنّى لها أن تلمّ بجميع الجوانب البلاغية التي ينطوي عليها "نهج البلاغة"، ولذا اقتصرنا في هذا الموضع على الكشف عن جانب بلاغي واحد هو ملمح (تقييد المعنى). وعليه جاءت الدراسة مخصوصة

بـ"تقييد المعنى" في نهج البلاغة، وهو من الأساليب البلاغية المهمة في تحديد المعاني وتوضيحها، على نحو يسهم في تقليل الغموض وزيادة فهم النص وإبراز الجوانب الجمالية الموظفة في استظهار المعنى. ويشمل تقييد المعنى استعمال الكلمات أو العبارات التي تضيف تفاصيل أو توضح جوانب معينة من المعنى العام للكلام. مما يجعله أكثر دقة ووضوحاً، فيكون سياق تقييد المعنى لغوياً ونحوياً، من جهة، ومقامياً من جهة أخرى، هو السبيل لفهم النص الأدبي وتفسير الدلالات التي قد تُشكل على المتلقي.

المبحث الأول

تقييد المعنى في البلاغة العربية المفهوم والمصطلح

المطلب الأول: تقييد المعنى لغةً واصطلاحاً:

التقييد لغةً: مصدر والفعل: "قيّدَ"، والقَيْدُ: معروف، والجمع أَقْيادٌ وقُيودٌ، وقيّدَهُ يُقَيِّدُه تَقْييداً. وقَيَّدْتُ الدابَّة. وفرسٌ قَيْدُ الأَوابِد أي أنه لسرعته كأنه يُقَيِّدُ الأوابد، وهي الحُمُرُ الوحشيَّةُ بلحاقها؛ قال سيبويه: هو نكرة وإِن كان بلفظ المعرفة"[١].

والتقييد حقلٌ درسيّ تتوزع مساراته المفهومية على مسارات شتى، أصولية ولغوية وبلاغية. وبالعموم: التقييد ضدّ الإطلاق، ويمكن الوقوف على تحديد مفهومه - بحدود توجه البحث- بأنه اللفظ الدال على الماهية مع قيد من قيودها[٢]، وهو اللفظ المطلق الذي اقترن به ما يقلل من شيوعه وانتشاره[٣]. وهذا التقليل أو التقييد مرتبط بقرائن شتّى زمانية أو مكانية أو سياقية أو مقامية أو لغوية. كقولنا: رجل كريم، فإنه يدل على ماهية الرجل، وهي (الإنسان الذّكَر)، مع قيد زائد عليها وهو الكرم؛ لأنها لا تتضمنه في أصل الوضع، فأُخرِج بذلك من الإطلاق إلى التقييد بالوصف.

والتقييد في الاصطلاح البلاغي يرتبط بالمجاز الذي يقيّد حدود المعنى ويجعله أكثر تشابكاً، وعرفه عدد من علماء البلاغة العربية بـ"الإسناد المجازي"، ومنهم عبد القاهر الجرجاني، إذ يقول: "وحدُّه أن كلّ جملة أَخرجتَ الحكم المفَاد بها عن موضوعه في العقل لضربٍ من التأول فهي مجاز"[٤].

المطلب الثاني: الفرق بين تقييد المعنى والتحرير البلاغي (التقييد والإطلاق):

والمطلق والمقيّد اسما مفعول من الفعلين (أطلق) و(قيّد)، ومصدرهما: الإطلاق والتقييد. ومعنى الإطلاق لغةً: التخلية والإرسال، ويقابله التقييد، وهو: الإمساك والحبس.

والتقييد والإطلاق متقابلان من حيث الماهية والصفة والحكم، فقد عُرف الإطلاق بأنه اللفظ الدال على الماهية بلا قيد(٥)، وهو اللفظ الدال على الحقيقة من حيث هي بدون اعتبار أي قيد من وحدة أو شرط أو وصف أو زمان أو مكان(٦)، كقولنا: (فرَس): لفظ يدلّ على حقيقة وماهية هي الحيوان الصّاهل، دون تقليل شيوع انتشاره بين أفراد جنسه أو نسبةً على وصف طارئ أو ظرف عارض أو بعد زماني أو مكاني وما شابه ذلك.

ويتحدد مفهوم الإطلاق بأنه الشامل للأحوال جميعًا، وهو يطلق على المعنى، وعلى اللفظ الدال عليه، وعلى الحكم إذا كان موضوعه مطلقاً. ويقابله المقيّد: وهو المقصور على حال معيّنة(٧).

وفي هذا السياق يجدر التنويه بأنّ من الأصوليين وعلماء اللغة من ذهب إلى التوسع في تعيين الحدود المشتركة بين التقييد والإطلاق، فانتهوا إلى ما يمكن القول بالتقييد والإطلاق في آنٍ معاً، فالمطلق قد ينطوي على جانب من التخصيص، والمقيد قد ينطوي على جانب من التعميم. ولعلّ هذا الأمر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوعي المتلقي لطبيعة اللغة من حيث كونها بنية قابلة للتأويل، من جهة، وبتقدير النسبة لجهة المعنى المراد، وفق ما يحدده السياق، من جهة ثانية.

المبحث الثاني

تقييد المعنى في نهج البلاغة

المطلب الأول: الأثر اللغوي والنحوي لتقييد المعنى في نهج البلاغة:

بالنظر إلى تقسيم العلماء لمكونات الجملة العربية على (عُمدة) و(فضلة)، يمكن مقاربة مفهوم "التقييد المعنوي"؛ فإذا كانت العمدة في الجملة هي المسند والمسند إليه ونائبه، فإنّ كل ماعدا ذلك إنما هو فضلة، والفضلة وظيفتها أن تكون قيداً في الأحكام

أو المعاني التي تنشأ بالعمدة[٨]، وعليه فإنّ (القيد عند علماء المعاني ما ليس مسنداً، ولا مسنداً إليه، ولا صلة. والقيود في الجملة هي أدوات الشرط، والنفي، والمفاعيل، والحال، والتمييز، والتوابع، والنواسخ، ...)[٩]. وليس الأمر وقفاً على المنحى اللغوي أو النحوي للفضلة، وإنما التقييد قد يتجاوز ذلك ليشمل الجملة برمّتها بعمدتها وفضلتها، وفقاً للمعنى المراد في سياق القول. وينبغي التنبه على أنّ ثمة فرقاً جوهرياً بين الفضلة والقيد، يتمثل في أنّ (المراد بالفضلة ما يُستغنى عنه من حيث هو هو، وقد يجب ذكره لعارض كونه سادّاً مسدّ عمدة، كضربي العبدَ مسيئاً، أو لتوقف المعنى عليه كقوله: من يعيشُ كئيباً كاسفاً بالهُ قليلَ الرجاء)[١٠]، ففي المثال الأول لا يجوز حذف الحال (مسيئاً)، لكونه جاء تبريراً للضرب أو إكساب الفعل المشروعية، وفي المثال الثاني لا يجوز حذف الحال (كئيباً) لكونه شرحاً توضيحياً للفظة (الميت)، أو توكيداً لها بوصف الموت منسوباً إلى الكآبة.

ومن قبيل التقييد اللغوي والنحوي ما يرد في خطبة له عليه السلام، يقول: **(ولعمري ما عليّ من قتال مَن خالف الحقّ وخابطَ الغيّ من إدْهانٍ ولا إيهان، فاتقوا الله عبادَ الله وفُرّوا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهَجَهُ لكم وقوموا بما عصَبَهُ بكم، فعليٌّ ضامنُ لفلجِكم آجلاً إنْ لم تُمنَحوهُ عاجلاً)**[١١].

تبرز في النص جملة من الدوال المفتاحية التي تعمل على تسديد المعنى وتحديده؛ ففي صيغة (خابطَ) دلالة المشاركة والمبالغة، إذ جعل الواحد منهما يخبط في الآخر، وذلك أشدّ مبالغةً من دلالة الفعل (خبطَ)، لأنّ من يخبط ويخبطهُ غيرهُ يكون أشدّ اضطراباً ممن يخبط ولا يخبطه غيرهُ. وتتعدد المعاني المعجمية للفظة (فلجكم) فمنها الفوز والظفر، ومنها التباعد والانفراج، ومنها القسمة والتدبير، ومنها الشّقُّ والتشقُّق، ومنها الإصابة والعلوّ والوضوح.[١٢] وقد حصر ابن أبي الحديد المعنى بالظفر والفوز، إلا أنّ السياق اللغوي يحيلنا على التروي في دلالة اللفظة؛ إذ إنّ المقام مقام تحذير لا مقام تبشير، فضلاً عن أنّ أسلوب الشرط (إن لم تُمنحوه عاجلاً) يفيد تقييد الدلالة بما يحذّر منه الإمام عليه السلام من مغبّة التأخير في موالاته أو القعود عنها والميل إلى سواها، وبذا يكون دلالة اللفظة محكومة بدلالة السياق ومقام الحال، ومقيدة بهما، لجهة أنها تحيل على الانشقاق والتدابر والقطيعة، أو قل: بُعد

الشّقّة بين الحقّ ومريديه من الذين قصدهم بقوله (عباد الله)، يدعم ذلك القرينة اللغوية المتمثلة بحذف "واو" الحال قبل حرف الشرط "إن" في الجملة، فلو قال عليه السلام (وإن لم تُمنحوه آجلاً)، لكان المقام مقام تبشير، ولكنّ حذف الواو أحال على تحذير وتنبيه. وبذلك تبدو لفظة (ضامن) محمولة على ما يوهم بنقيضها، فالضمانة - هنا - ليست ضمانة تبشير أو طمأنة أو وعد، وإنما ضمانة تحذير وترهيب ووعيد لمن تهاون أو تقاعس عن نصرة النهج الذي رسمه الله لعباده، وسلك مسلك من خالف الحقّ وخابط الغيّ.

كذلك تبدو لفظة (إيهان) الواردة في صيغة مراعاة النظير (إدهان)، محمولة هي الأخرى على غير معناها المعجمي، فصيغة اللفظة تحمل معنى المشاركة من الفعل (أوهنَ) أي أضعفَ، بيد أن السياق يحيل على تقييد معنى اللفظة بالضعف من دون المشاركة، وعليه يُلبس السياقُ اللفظةَ معنى (الوهن) بمعنى الضعف والفتور، لا (الإيهان) بمعنى إضعاف الآخر، يدعم ذلك سياق القسم أو التصميم على محاربة من خالف الحق وخابط الغيّ، من جهة، وأسلوب الحصر أو القصر (ما عليّ.... من إدهان ولا إيهان)، من جهة ثانية، وأسلوب العطف المنفي (ولا إيهان) الذي يطابق في الحكم بين المتعاطفين دلالياً)، وإلا لكان ثمة فساد أو تضارب في المعنى بين دلالتي (إدهان) و(إيهان)، بمعنى تحميل الأولى دلالة نفي المداهنة والنفاق، وتحميل الثانية دلالة العطف والشفقة والرحمة بمن خالف الحق.

ويتحدد الحذف في قوله عليه السلام (وفروا إلى الله من الله) بمعنى: فروا من عذاب الله إلى رحمته، ومن غضبه إلى رضاه، ولعلّ الاستدلال بالشعر، وإن كان في حقبة زمنية لاحقة، كفيل بتحديد المعنى، وحسبنا الاستشهاد بقول أبي نواس:

أيا من ليس لي منهُ مجيرُ ... بعفوكَ من عذابكَ استجيرُ

أفرُّ غليك منكَ وليس إلا ... إليكَ يفرُّ منك المستجيرُ

وبذا يتقيد معنى الحذف بالرحمة والعذاب.

ويبدو قوله عليه السلام (وقوموا بما عصبَهُ بكم) استيفاءً لظلال الجملة السابقة (وامضوا في الذي نَهَجَهُ لكم)، فهي من قبيل الإطناب الذي يفيد توكيد المعنى وتقييده. كما تأتي لفظة (عباد) مضافةً إلى لفظ الجلالة (الله)، مقيدةً لمعنى الإكرام والشّرف، فلفظة (عبد)

تُجمع على عباد وعبيد وعبدان، والعبد المملوك، وهو من يقوم بالفرائض والطاعات[١٣]، وفي قرن اللفظة بـ(الله) تأكيدٌ على أنّ المعبود واحد هو الله تعالى، لا سواه من الخلق، فيتحول العابد إلى عبد لغير الله، فالإمام عليه السلام يريد للإنسان أن يكون عبداً حراً لله لا عبداً مملوكاً لغيره.

ومن خطبة له عليه السلام يقول: **(إنما بدءُ وقوع الفتن أهواءٌ تُتّبَع وأحكامٌ تُبتَدَع)**[١٤].

ففي لفظتي (أهواء) و(أحكام)، إطلاق لجهة المعنى، والأولى مسند، والثانية بما في حكمها لكونها معطوفة على الأولى، بيد أنّ قرن كلٍ منهما بصفة لازمة (تُتّبَع) و(تُبتَدَع)، حمل المعنى على التقييد، ولئن كان كلٌّ من الوصفين أو النعتين فضلة، إنّ صوابية المعنى وتحديد مراده لا يتأتى إلا بتقييد المسند وما في حكمه بهما، فالمقصود أنّ الأهواء والأحكام لا بد واقعة، إلا أنّ مبعث الفتن وتحقق وقوعها إنما يكون باتباعها الأهواء وابتداع الأحكام، لا بالأهواء والأحكام في ماهيتها، وبذا يشكل النعتان قرينة لغوية توجه المتلقي لفهم الدلالة المقصودة.

ومن كلام له عليه السلام: **(أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رحبُ البلعوم، مُندَحِقُ البطن، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد، فاقتلوهُ ولن تقتلوهُ، ألا وإنه سيأمركم بسبّي والبراءِ مني، أما السبّ فسبّوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرّؤوا مني فإني وُلدتُ على الفطرة وسبقتُ على الإيمانِ والهجرة)**[١٥].

تقيد قرينة النعت المعنى المطلق للرجل، فهو مندحق البطن أي بارزها، رحب البلعوم أي واسعهُ. وهي صفات تقيد مطلق الرجل بالشراهة والبدانة، على نحو يتواءم واستتمام سياق النعت في قوله (يأكل) و(يطلب)، فيكون المعنى مقيداً بطلب الدنيا والإقبال على شهواتها البهيمية. وقد اختُلف في هذا الرجل، فقيل هو زياد بن أبيه، أو الحجاج، أو المغيرة بن شعبة، والأرجح أنّ المقصود هو معاوية، لقرينة الظرف (بعدي) الزمانية التي تحيل عليه.

ويعمد الإمام في بناء النسق القولي (ألا وإنه سيأمركم...) إلى ما يُعرف في البلاغة بالتفصيل بعد الإجمال، وهو ضرب من ضروب البلاغة التي تفيد تقييد المعنى وتحديده

وتفصيله× فمعاوية هذا سيأمر أتباعه بسبّ الإمام والبراء منه، وفي هذين المعنيين (السبّ والبراء) يرد نسقَا الشرط المفتتح بـ(أما)، وهو حرف شرط وتفصيل وتوكيد يفيد حصر المعنى وتوضيحه وتقييده، على نحو يجوّز فيه الإمام السبّ لكونه زكاة له ونجاة لأتباعه، والنهي عن البراء منه لما عرف عنه بالسبق في الإيمان والهجرة.

ومن وصاياه عليه السلام قوله: **(أما وصيّتي فاللهُ لا تشركوا به شيئاً، ومحمدٌ صلى الله عليه وآله فلا تضيّعوا سنّتهُ، أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين)**[١٦].

يبرز في نسق الوصية ملمحان مهمان من ملامح تقييد المعنى، الأول اسم الإشارة والمشار إليه في قوله (هذين العمودين) و(هذين المصباحين)، فالمقصود بالعمودين والمصباحين - وفق ما يشي بهما السياق - توحيد الله تعالى واتباع سنّة رسوله الكريم صلوات الله عليه، وقد أفاد اسم الإشارة في التركيبين الإضافيين المذكورين التحديد والتأكيد على المشار إليه، وقد يتسنى للمتلقي أن يعدّ اسمَي الإشارة فضلة يمكن الاستغناء عنها، مع لازم فائدتها المتمثلة في التقييد المعنوي أو التحديد الصريح للمشار إليه، فيمكننا القول: (أيموا العمودين وأوقدوا المصباحين)، وفي هذا ينفتح باب التأويل لتحديد المقصود من المشار إليه أو المعنى القصود، الذي لن يخفى على المتلقي كشفه من خلال السياق، وبذا يأتي التحديد والتقييد عبر اسمي الإشارة تسهيلاً للمتلقي لكشف الغرض المقصود وتأكيداً له، بوصف المشار إليه دلالة محورية في إقامة الدين وضمانه في القوب، على نحو واضح لا لبس فيه.

والملمح الآخر مقام التقديم والتأخير في الرتبة في قوله (فاللهُ لا تشركوا به شيئاً، ومحمدٌ صلى الله عليه وآله فلا تضيّعوا سنّتهُ)، فبالإمكان القول: (فلا تشركوا بالله شيئاً، ولا تضيعوا سنةَ محمد صلوات الله عليه)، وبذا ينكشف التركيب عن عملية تقديم وتأخير في الرتبة، هي قرينة تُلاحظ موقع الكلمة في التركيب الكلامي للدلالة على وظيفتها البلاغية[١٧]، كما أنها وسيلة أسلوبية، ووسيلة إبداع، وتقليب عبارة، واستجلاب معنًى أدبي[١٨]، وقد حظيت بعناية النحويين - قدماء ومحدثين- إذ جعلوا لموقع الكلام رتبًا بعضها أسبق من بعض[١٩]. وأشار سيبويه إلى مضمونها، ووضح دلالتها، وبين أن علة التقديم لا تكون إلا للعناية والاهتمام. فقال: (كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا

جميعًا يُهمانِهم ويعْنِيانهم)[٢٠]، وهذا يعني أن تقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما رتبته التقديم ليس أمراً اعتباطياً وإنما له أغراض ومعانٍ التزم بها التركيب ثم أصبحت قواعد مقررة.

فرتبة لفظ الجلالة (الله) في الجملة انقلبت من شبه جملة إلى مسند إليه، ورتبة لفظة (محمد) مقام النبوة، تحولت من مفعول به إلى مسند إليه أيضاً، وفي عملية التقديم والتأخير هذه تحوّل لكلتا اللفظتين من فضلة على عمدة، على نحو يتّسق ومقام تقييد المعنى وتأكيده وسبق المتأخر أو تقديمه لإبراز أهميته المحورية في الجملة وكشفاً عن المعنى المقصود الذي يدور حول اللفظتين اللتين تجسّدان مفهومي التوحيد والاعتصام بالسنة النبوية.

المطلب الثاني: الأثر البلاغي لتقييد المعنى في نهج البلاغة:

لا ريب في أنّ ضروب البلاغة وسائل تعين المتكلم على فهم المعنى والتقاطه بأسلوب يجمع بين الفكرة أو المضمون، والشكل أو جمالية الأسلوب، على نحو قد يجمع الأسلوب البلاغي في ثناياه أكثر من معنى تتفاوت مستويات حضورها واهميتها في التعبير القولي وفق مقتضيات السياق المقامي المرتبط بالمتلقي، بمعنى تقديم معانٍ شتّى بألفاظ قليلة. فالبلاغة في معناها اللغوي تعني: الوصول والانتهاء والبلوغ إلى مراد المتكلم.[٢١] كما تعني النضج والاكتمال، فيكون المعنى بليغاً إذا اكتمل وبلُغ.[٢٢]

ولا يغب عنك أنّ المعنى الاصطلاحي للبلاغة يعني مطابقة لكلام لمقتضى الحال. ويرتكز الكلام في علوّه وحسنِه وقبوله على مطابقته للاعتبار المناسب الذي هو مقتضى الحال[٢٣].

وقد زخر "نهج البلاغة" بأساليب بلاغية شتى ترى أصداءها أو أنماطها متماوجةً في النص الواحد، في سياق تعلقي واحد على المستوى الجمالي والدلالي، فكأن المعنى - بل هو كذلك - كتلة واحدة متماسكة لا تكاد ترى فيها فطوراً.

ومن ذلك قوله عليه السلام في إحدى خطبه ذامّاً اصحابه: **(كم أداريكم كما تُدارى البِكارةُ العَمِدَة، والثياب المتداعية، كلّما حيصَتْ من جانب تهتّكت من آخر، كلّما أطلّ عليكم مَنسرٌ من مناسرِ أهل الشام أغلق كلُّ رجلٍ منكم بابَهُ وانجحرَ انجحارَ الضّبّةِ في**

جُحرِها والضّبُع في وجارها، الذليلُ واللهِ من نصرتموه، ومن رُمِي بكم فقد رُمِيَ بأفوقَ ناصل، .... لا تعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل، ولا تُبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ)(٢٤).

يدور النص حول ثيمة رئيسة تتمثل في العلاقة غير المستقرّة بل القائمة على المداراة والمراعاة من طرف الإمام، والزيف والمخاتلة من طرف أصحابه المقصودين. ويسوق الإمام أطرافاً من هذه العلاقة في سياق صوري موارب ظاهراً ولكنه ذو ملمح دلالي محيط ودقيق على مستوى البنية العميقة، مستعيراً صوراً بلاغية شتى كالبكارة العمدة والثياب المتداعية المحيصة أو المخيطة من جانب والمتهتكة من جانب آخر، ولنا أن نتخيل بلاغة التشبيه التمثيلي في عملية المداراة، فالبكار: الفتيّ من الإبل، والعمدة: التي انشدخت إسنمتها من داخل وظاهرها صحيح، يريد بذلك تقييد طبيعة العلاقة وتحديد معناها بينه وبين أصحابه، فلئن كان ظاهرها صحيحاً إنّ باطنها أو حقيقتها مشوّهة ومختلّة، أو قل: إنّ ظاهرها يوحي بخلاف باطنها، في إشارة إلى معنى الكذب والنفاق، وتأتي صورة الثياب المحيصة في سياق ما يُعرف في البلاغة بالتصريف، وهو زيادة في المعنى عبر التعبير عن معنى واحد بأوجه قولية شتّى، استيفاء لظلال المعنى وتقييداً له، ومثل ذلك في توصيف انجحار الرجال في بيوتهم كانجحار الضبة في جحرها والضبع في وجارها، وهو تشبيه تمثيلي يأتي شطره الثاني (والضبع في وجارها) من قبيل الاستطراد أو الزيادة المراد بها تحديد المعنى المقصود وتقييده.

ويأتي قوله عليه السلام (ومن رُميَ بكم رُميَ بأفوقَ ناصل) من باب التكنية عن التخاذل والتراخي والجبن، فالأفوق الناصل هو السهم المكسور أو المنزوع الناصل الذي لا فائدة منه، وقد جرى مجرى المثل الذي يضرب لمن استنجد بمن لا يُنجد.

ويشكل التقابل بنية رئيسة في تقييد المعنى من خلال تبيان حدّ المتقابلين وجلاء معنى كل طرف، بين الحق والباطل، فالحق مع علي، والباطل من لم يكن معه، وهو ما أراد أن ينبههم عليه. زد على ذلك أنّ بنية التقابل قائمة على المفارقة الباعثة على التعجب والدهشة، فكيف لمن يدعي نصرة الإمام أن يعرف الباطل أكثر من معرفته الحقّ، وأن يبطل الحق وينصر الباطل؟!

وفي قوله عليه السلام يذمّ أهل العراق: **(أما بعدُ يا أهل العراق فإنما أنتم كالمرأة الحامل حملتْ فلمّا أتمّتْ أملصتْ، ومات قيّمُها وطالَ تأيّمُها وورثها أبعدُها)**[٢٥].

ترد هذه الخطبة في سياق قبول التحكيم عند المصاحف على الأسنة في قتال معاوية، ويشبّه الإمام مَن قبلَ بالتحكيم من أهل العراق بالمرأة الحامل التي ما إن أشرفت على الولادة حتى أجهضت جنينها، في تعبير بلاغي دقيق عن النكوص وخيانة العهد. ويستطرد الإمام في معرض صورة المرأة، فإذا بها مات قيّمها وطال تأيمها وورثها أبعدها، في تكنية عن بعد المرام والانحراف عن الغاية والضلال عن سواء السبيل، وهذا الاستطراد إنما وظيفته تقييد المعنى وتحديده، ليحدث أثره الفاعل في النفس ويحيط بالمعنى المقصود إحاطة لا تنسرب منها دلالاته.

ومن كلام له عليه السلام في شأن طلحة والزبير: **(فأقبلتُم إليّ إقبالَ العوذ المطافيل على أولادها، تقولون البيعةَ البيعةَ، فقبضتُ كفّي فبسطتموها، ونازعتُكم يدي فجذبتموها)**[٢٦].

تدور فكرة النص حول إقبال طلحة والزبير على الإمام ومسارعتهم لمبايعته ودفعه إلى قبول البيعة في وقت كان الإمام أعلن تخلّيَهُ وعدم رغبته، في سياق مضدّ لما جرى في السقيفة من أمر أبي بكر وعمر ومن لفّ لفيفهما. وفي هذا يعبّر الإمام تعبيراً كنائياً يقيد به المعنى المقصود تقييداً لا فكاك منه من قبيل إثبات الحجة الدامغة على من خالفوه سابقاً وسارعوا إلى مبايعته لاحقاً، من خلال تشبيه ضمني نرى فيه كلّاً من طلحة والزبير كالعوذ المطافيل أو النوق الحديثات النتاج أو الإنجاب، وكأنهم - بل هم كذلك - أطفال أحوج ما يكونون إلى الإمام أميراً وخليفة.

ويأتي قول الإمام (فقبضتُ كفي فبسطتموها) من قبيل التعبير الكنائي عن عدم رغبته في الإقبال على البيعة، فليس لمثله أن يرتهن بعلائق الدنيا إلا فيه مصلحة الأمة، وفي قوله (ونازعتكم يدي فجذبتموها) تصريف للقول الكنائي الأول، وتأكيد له وتقييد لمعناه، على نحو يجسّد إصرار الإمام على عدم مزاحمته أمر البيعة أو أن يفرض نفسه فرضاً عليها كما فعل غيره.

ويبرز في الصورتين الكنائيتين المشار إليهما محسن بديعي يجسّد بنية التقابل أو التضاد بين موقف الإمام (قبضتُ - نازعتُ)، وموقف الآخرين (بسطتموها - جذبتموها)، على نحو يجلو حدّي التقابل ويبرز المعنى مقيداً من خلال علاقة النقيض بنقيضه، وارتهان الضدّ بضدّه على المستوى اللغوي والدلالي.

المطلب الثالث: الأثر التناصي لتقييد المعنى في نهج البلاغة:

يعدّ الفضاء الديني حيّزاً مُعيناً على تحديد المعنى وتقييده في "نهج البلاغة"، إذ ارتبط بالقرآن الكريم واستمدّت الألفاظ دلالتها الإسلاميّة، على نحو مباشر أو ضمني، فالانعكاس في تقييد المعنى عائد إلى الرابط الدّيني بين المفردة ودلالتها.

ولعلّ تقييد المعنى دينياً يأتي في سياق ما يُعرف بالتناص، على اختلاف أنواع، فمنه التناص المباشر ومنه غير المباشر، إلا أنّ ما يميّز نوعية التقييد على المستوى الديني في "نهج البلاغة" أنه يأتي متّسقاً لغوياً ودلالياً من الدلالة المرجعية الدينية عموماً سوء على مستوى القرآن الكريم أو أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام.

فمن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء: **(ألا وإنّ الأرض التي تحملكم والسماء التي تظلّكم مطيعتان لربّكم وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجّعاً لكم ولا زُلفةً إليكم ولا لخيرٍ ترجوانه منكم ولكن أُمِرَتا بمنافعكم فأطاعتا وأُقيمَتا على حدود مصالحكم فقامتا، إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويُقلِعَ مُقلِع ويتذكّر متذكّر ويزدجر مُزدجِر، وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدُرُور الرزق ورحمة الخلق فقال سبحانه: استغفروا ربّكم إنه كان غفّاراً يرسل عليكم السماء مدراراً ويمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جنّاتٍ ويجعل لكم أنهاراً)**[٢٧].

يحتوي النص على مشتركات لغوية ودلالية تحيلنا على مرجعية قرآنية صِرف، فالسمار والأرض المطيعتان لله تعالى تحيلنا على قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٢٨]، وفي هذا تقييد لخلق الله في حاكميّته، فالأمر له لا جدال فيه. وجود السماء إحالة على قوله تعالى: (ولله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض

بعد موتها).[٢٩] وابتلاء الله عباده تكفيراً لذنبهم وتقرباً منه وابتلاءً لصدق إيمانهم يحيلنا على قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[٣٠]. وما سبق يأتي في سياق التناص غير المباشر الذي يتّسق لغوياً ودلالياً مع مرجعيته القرآنية تأكيداً للمعنى وتقييداً لحكمه.

ثمّ يردف الإمام ما تقدّم بتعبير قرآني صريح يحيل على أنّ الاستغفار مدعاة للرضا وزوال المحن وجلائها واطّراح الرزق: (استغفروا ربّكم) إلى قوله تعالى (أنهاراً)[٣١]، وهو من قبيل التعبير المباشر المقيّد للمعنى المراد.

واللافت للنظر أسلوب بناء الخطبة إذ إنّ الإمام بدأ بذكر خلق الله أي السماء والأرض تحديداً، وطواعيتهما لخالقهما، ثمّ تسخير الله لهما لنفع الخلق، على نحو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بطاعة الله واستغفاره ففيه مفتاح البركات واستجابة الدعوات.

وإننا لنقع على كثير من هذه المعاني في خطب الإمام علي ووصاياه وحكمه ورسائله، كوصيته لابنه الحسن عليه السلام، ورسالته لعثمان بن حنيف عامله في البصرة، ورسائله إلى معاوية بن أبي سفيان، وكتابه إلى أهل مصر لمّا ولّى عليهم الأشتر. ومما يستلهمه الإمام في سياق وصاياه وخطبه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله ما جاء في وصيته لابنيه الحسن والحسين عليهما السلام وقد أشرف على الموت على أثر ضربة ابن ملجم المرادي: **(ألا لا تقتلنّ بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً بضربة، ولا تمثلوا بالرجل، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إياكم والمُثلة ولو بالكلب العقور)**[٣٢].

يريد السياق تأكيداً على فكرة العدل القائم على العين بالعين والسنّ بالسنّ، على نحو يحيلنا على قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٣٣]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[٣٤]، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٣٥]، يعزز ذلك ما أوصى به الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام وحذّر منه: (إياكم والمثلة...)، وبذا فهو ينطلق من فضاء ديني محدد يقيد المعنى تقييداً يربأ بالمسلمين عن أن ينزلقوا إلى مهاوي الظلم والتجاوز الذي يدفع به دافع الانتقام والثأر، ويبقيه محصوراً في حدود التعاليم الإسلامية الحنيفة القائمة على العدل.

الخاتمة:

تنتهي الدراسة إلى أنّ التقييد المعنوي الناشئ عن بلاغة التأليف في نهج البلاغة يجب أن ينظر إليه لا على المستوى اللغوي المحدود بالقرائن اللغوية على المستوى المعجمي للفظة، وإنما على مستوى قرينة السياق اللغوي من جهة، وقرينة السياق المحيط أو ما يعرف بمقام الحال، من جهة ثانية.

وقد شكلت زوايا الرؤية الثلاثة هذه متضافرة على نحو تشكل رؤية متكاملة للنص بغية وعيه وفهمه لجهة تحديد المعنى وتقييد مراده المقصود. وقد برزت آليات تقييد المعنى في "نهج البلاغة" في المستويات الآتية:

- اللفظة ودلالتها
- ارتباط الألفاظ بالسياق اللغوي.
- ارتباط السياق اللغوي بمقام الحال.

ومن جهة أرى أنّ التقييد لم يخرج عن هيكليّة المعنى التي طرحها السياق، فكان السياق البوصلة التي من خلالها تمّ تحديد القيود التي واجهت المعنى.

وقد تمثلت التحديات التي تواجه المعنى وتقييده في:

- النّظر إلى المعنى من خلال التأويل.
- النّظر إلى المعنى من الوجهة البلاغية يحتاج إلى الارتباط مع التركيب النّحوي.
- تقييد المعنى في البلاغة من خلال المفردات ودلالتها اللغويّة.

هوامش البحث

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (قيد).
(٢) ينظر: الصاعدي، حمد بن حمدي: المطلق والمقيّد، الجامعة الإسلامية، السعودية، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٢٣.
(٣) ينظر: الصاعدي، حمد بن حمدي: المطلق والمقيّد، ص١٢٤.
(٤) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص٣٣.
(٥) ينظر: الصاعدي، حمد بن حمدي: المطلق والمقيّد، ص١١٨.
(٦) ينظر: الصاعدي، حمد بن حمدي: المطلق والمقيّد، ص١١٩.
(٧) ينظر: الهاشمي، علي حسن مطر: الفرق بين العام والمطلق وبين التخصيص والتقييد، دراسة أصولية، نصوص معاصرة، مركز البحوث المعاصرة في بيروت، سبتمبر، ٢٠١٧م، ص٤١ وما بعد.
(٨) ينظر مثالاً: الزركشي، بدرالدين: البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٥٧م، ١٥/٢.
(٩) طبانة، بدوي: معجم البلاغة العربية، دار ابن حزم، بيروت: ط٤، ١٩٩٧م، ٥٧٤.
(١٠) الأشموني، علي بن محمد: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت، ١٦٩/٢.
(١١) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، المجلد ١، ١٩٩٦م، ص١٠٩.
(١٢) ينظر: لسان العرب، مادة (فَلَجَ).
(١٣) ينظر: لسان العرب، مادة (عَبَدَ).
(١٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مجلد ١، م. س، ص٢٩٩.
(١٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مجلد ١، م. س، ص٣٥٥.
(١٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المجلد الثاني، ص٤٣٢.
(١٧) ينظر: البيان في روائع القرآن: د. تمّام حسان، البيان في روائع القرآن: عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م، ص٩١.
(١٨) ينظر: البيان في روائع القرآن، ص٩١.
(١٩) ينظر: الجملة العربية تأليفها وأقسامها: فاضل السامرائي، ط٣، دار الفكر، عمّان، ٢٠٠٩م، ص.٥٦
(٢٠) سيبويه، عمرو بن عثمان: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م: ٣٤/١.
(٢١) ينظر: المراغي، احمد مصطفى: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م، ص١٣.
(٢٢) ينظر: فياض، محمد جابر: البلاغة والفصاحة لغةً واصطلاحاً، دار المنارة، جدّة، ط١، ١٩٨٩م، ص١١.

(٢٣) ينظر: الخطيب القزويني، جلال الدين: التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٢م، ص٣٣ وما بعد.
(٢٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المجلد الثاني، ص٣٨.
(٢٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المجلد الثاني، ص٤٧.
(٢٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المجلد الثاني، ص٤٠٥.
(٢٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المجلد الثاني، ص٤١٨.
(٢٨) سورة فُصّلت، الآية: ١١.
(٢٩) سورة النحل، الآية: ٦٥.
(٣٠) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.
(٣١) سورة نوح، الآية: ١٠-١٢.
(٣٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المجلد الرابع، ص١١١-١١٢.
(٣٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٣٤) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٣٥) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. زرواق، فؤاد: أثر الفلسفة اليونانية في البلاغة العربية، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، الجزائر، مجلد ٣، عدد ٧، ٢٠١٨م.
٢. فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النصّ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢م.
٣. ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٤. الصاعدي، حمد بن حمدي: المطلق والمقيّد، الجامعة الإسلامية، السعودية، ط١، ٢٠٠٣م.
٥. الجرجاني ، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
٦. الهاشمي، علي حسن مطر: الفرق بين العام والمطلق وبين التخصيص والتقييد، دراسة أصولية، نصوص معاصرة، مركز البحوث المعاصرة في بيروت، سبتمبر، ٢٠١٧م، ص٤١ وما بعد.
٧. الزركشي، بدرالدين: البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٥٧م.

٨. طبانة، بدوي: معجم البلاغة العربية، دار ابن حزم، بيروت: ط٤، ١٩٩٧م.

٩. الأشموني، علي بن محمد: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت، ١٦٩/٢.

١٠. ابن أبي الحديد: نهج البلاغة، ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، المجلد ١، ١٩٩٦م.

١١. د. تمّام حسان: البيان في روائع القرآن:، البيان في روائع القرآن: عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.

١٢. السامرائي ، فاضل: الجملة العربية تأليفها وأقسامها:، ط٣، دار الفكر، عمّان، ٢٠٠٩م.

١٣. المراغي، أحمد مصطفى: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.

١٤. فياض، محمد جابر: البلاغة والفصاحة لغةً واصطلاحاً، دار المنارة، جدّة، ط١، ١٩٨٩م، ص١١.

١٥. الخطيب القزويني، جلال الدين: التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٢م.

١٦. سيبويه، عمرو بن عثمان: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.